قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هو الله -عز وجل- ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: ذو حكمة بالغة، ﴿خَبِيرٍ﴾ أي: ببواطن الأمور، والعالِمُ ببواطن الأمور عالِمٌ بظواهرها سبحانه.

وقال -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤]، فأنت ترى أن القرآنَ كُلَّه وُصِف بالحكمة، وأنه حكيم، وحكيم بمعنى: محكم، وبمعنى: حاكم؛ لأن القرآن أداةُ الحكْمِ، ومعنى هذا الإحكام: الإتقانُ والجودة في ألفاظه ومعانيه، فكلُّه محكَمٌ متقن في أعلى ما يكون.

وهل هو يتفاضل في هذا الباب؟

الجواب: أما من حيث المتكلَّم به فإنه لا يتفاضل؛ لأن المتكلم به واحدٌ، هو الله -عز وجل-، وأما من حيث الأسلوب والمعنى: فإنه يتفاضل، قال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- حين سأل أُبي بن كعب: «**أَيُّ آيَةٍ أَعْظَمُ فِي كِتَابِ اللهِ؟**»، قال: آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] فضرب على صدره، وقال: «**لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»[(١)]، وقال في الفاتحة: «**إِنَّهَا أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ**»[(٢)]، وقال في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين ومواضع السجود، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم (٨١٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب وسميت أم الكتاب، رقم (٤٤٧٤).

«**تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»[1]، فالقرآنُ يتفاضل من حيث الوجه، أما من جهة المتكلم به فلا يتفاضل.

والتشابه العام: هو أن القرآن يشبه بعضه بعضًا في الكمال، والجودة، والإحكام، والأحكام، والأخبار، وغيرها.

وقوله -تعالى-: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، ولم يقل: بعضه متشابهًا، بل كله كتابًا متشابهًا مثاني.

وقوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ هذا بدل من أحسن.

وقوله: ﴿مَثَانِيَ﴾ أي تثنى فيه المعاني والأحكام، ولهذا تجد الله -عز وجل- في كتابه العزيز إذا ذكر ثوابَ المؤمنين ذكر ثواب المجرمين، كما في سورة المطففين كتاب الفجار وكتاب الأبرار.

وأيضا مثاني بالنسبة لصفات الخلق: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ﴿مَثَانِيَ﴾ أي تُثَنَّى فيه المعاني والأحكام والأوصاف ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ أي خوفًا وتعظيمًا.

وأما الثالث: وهو أن بعض القرآن بعضه محكم وبعضه متشابه.

فالإحكام هنا: يعني: الواضح البيِّن، المحكم الذي لا يحتاج إلى تأمل طويل، ولا يختلف الناسُ فيه، مثال قوله -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧] يعني: يتبعون المتشابه ويحصرونه، ويوردونه على

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، رقم (٨١١).

الناس لِيُلَبِّسُوا عليهم دينهم، ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فقسَّم الله -تعالى- القرآن إلى قسمين: لقوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ﴾ «من» هنا للتبعيض، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ والمتشابه هو الذي يخفَى على بعضِ النَّاس، وبهذا نعرِفُ أنَّه لا تناقُضَ بينَ وصفِ القرآن كله بالإحكام، ووصفه كلِّه بالتشابه، ووصف بعضِه بالإحكام وبعضه بالتشابه.

قوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، في هذه الجملة اختلفَ السلفُ والخلَفُ فيها، هل يوقف على قراءة الوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أم يوصل ويقال: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾؟

والجواب: أن فيها قراءتين، وأكثر السلف على قراءة الفصل، يعني: الوقف ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ويكون ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبره، وبعض السلف يصل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أيضًا يعلمون وتكون جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حالًا من الراسخين في العلم في موضع نصب، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وليس بين الآيتين اختلاف، فالذين وقفوا على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قالوا: إن التأويل هو علم حقائق هذه المشتبهات ومآلها في المستقبل، وهذا لا يعلمه إلا الله.

والذين وصلوا قالوا: إن المراد التفسير، فإن الراسخين في العلم يعلمونه، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنه-: «**أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله**»[1].

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٨٣).

لو قال قائل: في قوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ لو قيل بالوصل ألا يكون أولى؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون متشابه الآيات؟

فالجواب: إن هذا يختلف، فإذا جعلتَ التأويل بمعنى التفسير، فالوصل أولى، وإن جعلتَ التأويلَ بمعنى المآل والعاقبة فالفصلُ أولى، ولهذا وَرَدَ عن السلف قراءتان، قراءةٌ بالوصل وقراءةٌ بالفصل، وبناءً على ذلك نقول: إن جَعَلْنَا مَعْنَى التأويل: التفسير، فالوصل، وإن جعلناه معنى: ما يؤول إليه الشيء فإن ذلك لا يعلمه إلا الله.

فإن قال قائل: ما الحكمة في وجود التشابه الخاص؟

قلنا: الحكمة في ذلك هي الامتحان والابتلاء؛ لِيعْلم الله -عز وجل- مَنْ في قلبه زيغ، ومن ليس في قلبه زيغ؛ لأن مَن في قلبه زيغ يتبع المتشابه ليضرب كلام الله بعضه ببعض، وأما الذي أعطاه الله الرسوخَ في العلم فإنه يعرف المتشابه كيف يتخرج من هذا، وضربنا لهذا أمثلة.

مسألة: الحروف الهجائية هل لها معنى في ذاتها؟

الجواب: لا، لأن القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ، والعرب لا يرون للحروف معنى في ذاتها، لكن لها مغزى، وهو أن هذا القرآن الذي أعجز العرب لم يأتِ بجديد عليهم، بل أتى مما يركبون منه كلامهم وهي الحروف، ومع هذا عجزوا أن يأتوا بمثله، حتى أن مسيلمةَ الكذاب وغيره ممن ادعوا النبوة أرادوا أن يأتوا بمثله فأتوا بأمور مضحكة، كل من قرأ ما قالوا يضحك منه.

***

مثاله فيما يتعلق بالله تعالى: أن يتوهم واهمٌ من قوله -تعالى-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى: أن يتوهم واهمٌ تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضًا حين يقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، ويقول في موضع آخر: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨].

ومثاله فيما يتعلق برسول الله: أن يتوهَّم واهمٌ من قوله -تعالى-: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤] ظاهرُه أن النبيَّ ﷺ كان شاكًّا فيما أُنزل إليه.

الشرح

هذا تشابُهٌ فيما يتعلق بالله -عز وجل-، وفيما يتعلق بكتاب الله، وفيما يتعلق برسول الله ﷺ، أما الأولُ وهو فيما يتعلَّق بالله -عز وجل- وهو أن يتوهَّم واهمٌ من قوله -تعالى-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] أنهما تشبهان أيدي المخلوقين، ويبني هذا الوهم بأن يقول: إن الله خاطبنا في القرآن بما نعلم، ونحن لا نعلم يدًا إلا مثل أيدي المخلوقين، وهذا يقتضي أن تكون يدُ الله مشابهةً لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله: يقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، ويقول: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨] ففي الآية الأولى يقول: إن إصابة السيئة من نفسه وفي الثانية يقول: إن إصابتهم السيئة من عند الله، وهذا تناقض فكيف تكون إصابةُ السيئة مرةً من عند الله، ومرةً من عند أنفسهم؟

فيقول: هذا تناقض، وكذلك مثلها في الآيات، وقد ألَّف الشيخُ الشنقيطيُّ -رحمه الله-[1] كتابًا سماه «**دفع إيهام الاضطراب في آيات الكتاب**».

وأما فيما يتعلق برسول الله ﷺ فهو قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] وجه التشابه: أن ظاهره أن النبيَّ ﷺ كان شاكًّا، ولهذا أحالَه على الذين يقرؤون الكتاب من قبله، فقال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤]، ومن المعلوم أن النبيَّ ﷺ لم يشكَّ، ولا يمكن أن يشكَّ، وقد شهد الله -عز وجل- له بالإيمان في قوله -تعالى-: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ...﴾ الآية.

***

(١) هو العلاّمة المفسر محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكنى الشنقيطي، صاحب كتاب «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، ولد في موريتانيا، درس علوم القرآن والسيرة والأدب والتاريخ وعرف عنه الذكاء والاجتهاد حتى صار من علماء موريتانيا، فتولى القضاء في بلده، ثم خرج للحج عام (١٣٦٧هـ)، استقر على أثره مدرسًا في المسجد النبوي، ثم اختير للتدريس في المعهد العلمي بالرياض (١٣٧١هـ)، وصار عضوًا بارزًا في معهد القضاء العالي بالرياض (١٣٨٦هـ)، وكان من أوائل المدرسين في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية (١٣٨١هـ). توفي -رحمه الله- عام ١٣٩٣هـ.

مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بيَّنَه الله تعالى، فقال في الزائغين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، وقال في الراسخين في العلم: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، فالزائغون يتَّخِذُون من هذه الآيات المشتبهات وسيلةً للطعن في كتاب الله، وفتنةٌ الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيَضِلُّون، ويُضِلّون.

وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله -تعالى- فهو حقٌّ، وليس فيه اختلافٌ ولا تناقض؛ لأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] وما جاء مشتبهًا ردُّوه إلى المحْكَم؛ ليكون الجميعُ محكمًا.

ويقولون في المثال الأول: إن لله -تعالى- يَدَيْن حقيقيتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيديَ المخلوقين، كما أن له ذاتًا لا تماثل ذوات المخلوقين، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

الشـرح

يقولون: إن هذه الآية من المتشابه، وينقسم الناسُ فيها إلى ثلاثة أقسام:

قسمٌ قال: هي مماثلة لأيدي المخلوقين؛ وعلتهم في ذلك أن الله خاطبنا بما نعلم ونحن لا نعلم إلا ما نشاهد، وهؤلاء هم المُمَثِّلة.

والثاني قال: إن ظاهر الآية التمثيل، ولهذا يجب أن نصرفها عن ظاهرها إلى أمرٍ معنوي، ونقول: اليد بمعنى النعمة، أو بمعنى القدرة.

والقسم الثالث قال: نُثبت لله تعالى يدين حقيقيتين، لا تماثلان أيدي المخلوقين، أما إثبات اليدين؛ فلأن الله أثبتهما وهو أعلم بنفسه منا، وأما كونهما لا تماثلان أيدي المخلوقين، فلأن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا دليل سمعي.

ودليل عقلي: إذا كان لله ذاتًا لا تشبه ذوات المخلوقين، فليكن له صفات لا تشبه صفات المخلوقين؛ لأن الصفات تابعة للذات، وكلنا يعلم اليدَ المضافة إلى الجَمَل ليستْ كاليد المضافة إلى الأرنب مثلًا، فمجردُ ما يقول الإنسانُ: (يد أرنب) يعرف أنها يدٌ صغيرة تليق بالأرنب، أو يقول: (يد جَمَل) يعرف أنها يد كبيرة تليق بالجمل، فصفات كل شيء تناسبه، فإذا كنت أيها المعطِّل تُثبت أن لله ذاتًا، فهل تقول: إنها تماثل ذوات المخلوقين، فسيقول: لا، إذنْ أثبتَّ صفاتٍ لا تماثل صفات المخلوقين؛ لأن الكلام عن الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، وهذا قياس واضح؛ لأنه لو أنكر أن يكون لله ذاتًا لكَفَر؛ لأن هذا جَحْد مطلق.

***

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنةَ والسيئةَ كلتاهما بتقدير الله -عز وجل-، لكن الحسنة سببُها التفضُّل من الله -تعالى- على عباده، أما السيئة فسببها فعل العبد كما قال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، **فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة**

الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَدِّرِهِ، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدِّرِهِ، وبهذا يزول ما يُوهِم الاختلافَ بين الآيتين لانفكاك الجهة.

الشـرح

إِذنْ إضافة السيئةِ إلى الإنسان إضافةُ الشيء إلى السبب، وإضافتها إلى الله إضافةُ الشيء إلى مُقَدِّرِهِ، وبينهما فرق، وإذا انْفَكَّت الجهةُ زال التعارض؛ لأن التعارضَ إنما يكون فيما ورد شيئان على شيء واحد، أما مع انفكاك الجهة فلا تعارُضَ، لكن أهلَ الباطل يتخذون من مثل هذا وسيلةً إلى الطعن في القرآن.

كذلك -أيضًا- يقول الله -تعالى- عن المكذبين: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢]، وفي آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] ففي الآية الأولى نَفَى أن يكتموا الله، وفي الثانية أثْبَتَ أنَّهم يكتمون، فيأتي إنسان ويقول: إن هذا القرآن تناقض، ومرة يقول: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، ومرة يقول: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢] هذا تناقض، لكن الراسخين في العلم يُجيبون عن هذا، يقولون: مثل يوم القيامة هو خمسون ألف سنة، وهذه المدة تتغيَّر فيها الأحوال، فمرة يكتمون، ومرة لا يكتمون، ومرة تكون الوجوه سودا، ومرة تكون زرقًا، أو يُحمل على أن الأزرق شديد الزُّرقة يميل إلى السَّواد، فيصح أن يكون أسودَ، أو يوصف بأنه أسودُ، على هذا الاعتبار.

المهم أنه فرَّق بين إنسانٍ يأتي بمثل هذه المتشابهات من أجل أن يطعن فيها بتناقض بعضها البعض، وبين إنسانٍ تَمُرُّ عليه، ويحاول أن يجمع بينها، فإن الأول لا يُفتح عليه ولا يُوفّق للجمع، والثاني يُوفَّق.

ونظير هذا ما يُطَنْطن به بعضُ الطلبة، تجدُه بمجرد ما يشتبه عليه حديثان يحملهما على وجه التماس التعارُضِ، ولو أنّه فكَّر قليلًا لعرف أنه لا تعارُضَ، وهذا يَرِدُ كثيرًا من بعض الطلاب، يحب الإغرابَ في بعض الشيء بمجرد ما يتوهَّم أن هناك تعارضًا بين حديثين أو آيتين، ويقول: كيف كذا، ما الجمع بين كذا، مع أنه لو تَأَمَّلَ أقلَّ تَأَمُّلْ، لعرف أنه لا تناقض.

***

ويقولون في المثال الثالث: أن النبي ﷺ لم يقعْ منه شكٌّ فيما أُنزل إليه، بل هو أعلم النَّاس به، وأقواهم يقينًا كما قال الله -تعالى- في نفس السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٠٤] المعنى: إن كنتَ في شكٍّ منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبُدُ الذين تعبدون من دون الله، بل أكفُرُ بهم وأعبُدُ اللهَ.

الشـرح

وإيراد هذه الآية من أصعب ما يكون فقال -تعالى-: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] فيقول: هذا الرسول -عليه الصلاة والسلام- يشك، نقول: لم يقل له ذلك عن شكٍّ في رسوله، وكيف يكون ذلك، وهو قد قال في نفس السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن

كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس:١٠٤]، والمعنى: إن كنتم في شكٍّ فأنا على يقين، فلا أعبد الذي تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم.

* * *

ولا يلزم من قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤] أن يكون الشك جائزًا على الرسول ﷺ، أو واقعًا منه. ألا ترى قوله -تعالى-: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، هل يلزم منه أن يكون الولد جائزًا على الله تعالى أو حاصلًا؟ كلا، فهذا لم يكن حاصلًا، ولا جائزًا على الله تعالى، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٢-٩٣].

ولا يلزم من قوله -تعالى-: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧] أن يكون الامتراء واقعًا من الرسول ﷺ، لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه، ألا ترى قوله -تعالى-: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧]، ومن المعلوم أنهم لم يصُدُّوا النبيَّ ﷺ عن آيات الله، وأن النبيَّ ﷺ لم يقع منه شرك. والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه التنديدُ بمن وقع منهم، والتحذيرُ من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، وظنُّ ما لا يليق بالرسول -صلى الله عليه وسلم-.

الشـرح

إِذنْ هذه الآية يتخذ منها أهل الزيغ طعنًا بالرسول ﷺ، ومعلوم أنه إذا ثبتَ الطعنُ لم يصحَّ أن يكون رسولًا، لكن نقول: إنه لا يلزم من قوله -تعالى-: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أن يكون الشَّكُّ جائزًا، ولا أن يكون واقعًا من الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يلزم إن فرض أن يكون، ولهذا فَرَّق العلماء بين «إنْ» و«إذا»، وكلاهما شرطيتان، فقالوا: «إذا» تُفيدُ الوقوعَ، و«إنْ» لا تفيده، بل قد تأتي في أمحل المحال، ألا ترى إلى قوله -تعالى-: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ فهل يلزم من هذا أن يتخذ الله ولدًا؟

الجواب: لا يلزمُ، ولا يمكن يتخذ أن الله ولدًا؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

إِذنْ: فما معنى الآية: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾؟

معناها إنْ فُرِض أنَّ له ولدًا، فأنا أولُ العابدين لهذا الولد، فلا أنكره، لكن هذا أمرٌ غير ممكن، فإذا امتنع الشرطُ امتنع المشروط، كقول الشاعر[1]:

إِذَا شَابَ الْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي ... وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الْحَلِيبِ

فمعلومٌ أن الغرابَ لا يشيب، وأن القارَّ الأسودَ لا يكون كاللبن الأبيض، فكذلك هنا على فرضِ أنَّ له ولدًا، فأنا أولُ من يعبُدُ هذا الولدَ؛ لأنه ولدُ الله، وجُزْءٌ منه، ولكن هذا مستحيلٌ، وهذا القولُ هو أحسن الأقوال، ولا يحتاجَ إلى تقدير، ولا إلى تمَعُّنٍ.

---

(١) البيت غير منسوب، ذكره ابن حبان في روضة العقلاء (ص:١١٧)؛ والدميري في حياة الحيوان (٢/ ٢٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٨٩).

وقيل: إنَّ «إنْ» نافية، والمعنى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ «إن» تأتي بمعنى النفي، وهي كثيرة في القرآن فيكون ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ الْعَٰبِدِينَ﴾، لكن يشكل عليه وجه ارتباطها بالجملة التي قبلها، وذلك إذا قلت: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ الْعَٰبِدِينَ﴾، فهذا لا يمكن إلا إذا أولنا «الْعَابِدِينَ» بمعنى «المؤمنين» ما كان للرحمن ولدٌ، فأنا أول المؤمنين بذلك، أي: بأنه لا ولدَ له، وتكون العبادةُ هنا مطلقةً على الإيمان، بجامع الذل في كلٍّ منهما، ومع هذا فهو خلافُ الظاهر للآية، فهو يُنافي ظاهرَها منافاةً تامة؛ لأن الآيةَ صريحةٌ أنَّ «إنْ» شرطيةٌ، ومعناها ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ الْعَٰبِدِينَ﴾ فيكونُ بهذا تنديدًا للنصارى الذين يعبُدُون عيسى، فهذان القولان هما أشهرُ الأقوالِ في هذه الآية، وهيَ من أَعْوَص الإيرادات في آيات القرآن الكريم.

وكذلك لا يلزم من قوله -تعالى-: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أن يكون الامتراء واقعًا من الرسول ﷺ؛ لأن النهيَ عن الشيء قد يُوجَّه إلى من لم يقع منه، ألا ترى إلى قوله -تعالى-: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧]، ومن المعلوم أنهم لم يصدُّوا الرسولَ ﷺ عن آيات الله، وأن النبيَّ ﷺ لم يقع منه شيء، فالنهي عن الشيء لا يلزم منه وقوعُ الشيء، ولا جوازُ وقوع الشيء أيضًا.

وهل يلزم أنه يجوز؟

الجواب: لا يلزم أنه جائز أن يصدوه، بل ولا يلزم أن يصدوه؛ لأن الله -تعالى- قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

فقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ إذنْ الرسولَ ﷺ مُثَبَّتٌ، لا يمكن أن يصده هؤلاء، وعلى هذا لا يلزم من النهي كونُه من الممترين، ولا أن يقع منه الامتراء، أو أن يجوز عليه الامتراء، كما أن قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، لا يلزم وقوع الشرك منه، ولا جوازُ وقوع الشرك من الرسول عليه الصلاة والسلام.

فما الفائدة أن يُوجَّه النهيُ إلى من لا يمكن أن يقع منه ما نُهي عنه؟

الجواب: الغرضُ من توجيه النهي إلى من لا يقع منه التنديدُ بمن وقع منهم، والتحذيرُ من منهاجهم، على حد قول القائل: «إياك أعني واسمعي يا جارة»[1].

* * *

(١) جمهرة الأمثال (١/ ٢٩)، ومجمع الأمثال (١/ ٤٩).

أَنْوَاعُ التَّشَابُهِ فِي الْقُرْآنِ

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي؛ وهو ما لا يمكن أن يعلَمَه البشرُ، كحقائق صفات الله -عز وجل-، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها، وكيفيتها لقوله -تعالى-: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وقوله -تعالى-: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، ولهذا لما سُئِل الإمامُ مالك -رحمه الله- تعالى عن قوله -تعالى-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[(١)]، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

الشرح

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

الأول: حقيقي: وهو ما يخفى على كلِّ أحدٍ، ولا يمكن الوصول إلى معرفته، وهذا مشتبهٌ حقيقيٌّ، فموقِفُنا منه أن نَكِل عِلْمَه إلى الله -عز وجل-، ونقول: الله أعلم.

مثاله: حقائق صفات الله -عز وجل-؛ فإن حقائق هذه الصفات لا تُعلم،

(١) اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/ ٣٩٨)، والأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٠٦)، وحسنه ابن حجر في الفتح (٣/ ٤٠٧)، وأخرجه أيضا ابو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٦)، والدارمي في الرد على الجهمية (٢٨٠).

فنحن قد نعلم المعنى، ولكن لا نعلم الْكُنْه والحقيقةَ، ودليلُ ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ فمهما كان الإنسانُ عالمًا وذكيًّا، فإنه لا يُمكنه أن يُحيط بالربِّ علما أبدًا، ولا يعلم من عِلْمِ الله إلا ما علَّمَه الله، كما قال الله -تعالى-: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال -تعالى-: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فالأبصارُ لا تدركه وإن رَأَتْه، وهو يدرك الأبصارَ، وقد استدلَّ بهذه الآية من رأى أن اللهَ لا يُرى في الآخرة، وقال: إن الله -تعالى- يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، والحقيقةُ أن الآيةَ حُجَّةٌ عليه، وليست حُجَّةً له؛ لأن نفي الإدراك يدُلُّ على وجود أصل الرؤية، ولو كان أصلُ الرؤية غيرَ موجودٍ لكان نفي الإدراك قصورًا ولَغْوًا من القول لا فائدة منه.

ولما سئل الإمام مالك -رحمه الله- عن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ قال: «الاستواء غير مجهول»، أي: معلوم المعنى في اللغة العربية، و«الكيف غير معقول»، أي: لا يُدرَك بالعقل، وإذا لم يُدرك بالعقل فلا مردَّ إلا إلى السمع، والسمعُ لم يرد به.

وهنا أقول: إن بعضَ الطلبة لا يدري ما معنى السمع أو العقل؟

والجواب: أن ما كان دليلُه الكتاب والسنة فهو ثابتٌ بالسمع؛ لأن الكتاب والسنة مسموعان، وما كان دليلُه النظر فهو بالعقل، ولهذا يسمى المتكلمون بالنُظَّار؛ لأنهم ادَّعوا أنهم هم أهلُ العقول.

و«الإيمان به واجب»، أي: الاستواء، و«السؤال عنه»، أي: عن كيفيته «بدعة».

وهذا النوع يقول المؤلف: لا يُسأل عن استكشافه، فهل النفي هنا للكراهة أم للتحريم؟

الظاهر أنه للتحريم، فهي وإن كانت تحتمل المعنيين، لكن الظاهر أنها للتحريم؛ لأن مالك بن أنس اشتد في السؤال عن الكيفية، وقال للسائل: «ما أُرَاكَ إلا مبتدعًا»، وأمر به أن يخرج من المسجد.

وهنا مسألة: هل آيات الصفات من المتشابه أم هي من المحكم؟

الجواب: نقول: لا يجوز إطلاقُ آيات الصفات من المتشابه، لكن إذا أطلق عليه المتشابه فإننا نقول: إن أراد بالتشابه خفاءَ المعنى فهذا غلط؛ لأن معناها واضح ظاهر، وإن أراد خفاءَ الحقائق فهذا صحيح؛ لأن هذا من المتشابه؛ لأنه لا يمكن أن نصل إلى معرفة حقائقه.

***

النوع الثاني: نسبي: وهو ما يكون مشتبهًا على بعض الناس دون بعض، فيكون معلومًا للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه؛ لإمكان الوصول إليه، إذ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله -تعالى-: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨].

الشـرح

قوله -تعالى-: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: كلِّ الناس، وقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: لا يهتدي به ويتعظ إلا المتقون.

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، **وقال:** ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩]، **وقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

الشرح

قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ إذنْ هو مُبين؛ لأن المبين للشيء لا بد أن يكون هو بيِّنًا، فكل شيء يحتاج الناسُ إلى بيانه فإنه موجودٌ في القرآن، إما منصوصًا عليه، أو مدلولًا عليه بالإشارة.

وقد قرأتُ لبعض العلماء المعاصرين أنه كان في مطعم في إحدى الدول الغربية، وكان في هذا المطعم رجلٌ من النصارى، فأتى إلى هذا العالم ليُشَبِّه عليه، فقال: أليس قرآنكم تبيانًا لكل شيء؟ فقال: نعم، هو تبيانٌ لكل شيء، فقال: هذا الطعام هل ذُكر في القرآن؟ -وهذا السؤالُ في الحقيقة ليس له وجهٌ؛ لأن القرآنَ لم ينزل إرشادًا للمطابخ- فقال العالِم: نعم، هو موجود في القرآن، فسأل العالم صاحب المطبخ كيف تصنعون هذا الطعام؟ فوصف له كيفيةَ صُنع الطعام، فقال العالم: هكذا جاء في القرآن فقال النصراني: أين هذا في القرآن؟! فقال العالم: قال الله -تعالى-: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، فما لم ينُصَّ عليه في القرآن، أرشدنا كيف نتوصل إليه.

وقال الله -تعالى-: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ إذا قرأه جبريلُ عليك.

وهل الله يقرأه عليه؟

الجواب: لا، لكن الذي يقرأه هو جبريل -عليه السلام-، فلما كان جبريلُ رسولًا من رب العالمين، صارت قراءتُه كقراءة الله -عز وجل-، وأطلق الله الفعلَ على نفسه، والمراد به الرسول ﷺ؛ لأن الرسولَ مُبَلِّغٌ، ومن هنا نصل إلى فائدة عظيمة في قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

فلو قال قائل: كيف يبايعون الله، والله فوق العرش في السماء وهؤلاء تحت الشجرة؟

قلنا: يبايعون الله؛ لأنهم يبايعون رسولَه ﷺ، ومبايعةُ رسوله مبايعةٌ له، كذلك قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فالذي فوقَ أيديهم هو يد الرسول ﷺ، فلما كانت يدُ رسول الله صارت كأنها يدُ الله؛ وحينئذٍ لا إشكال في الآية، وهذا خلافٌ لمن قال: إن في الآية إشكالًا، لكن يجاب عليه بما سبق.

قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، أي: لفظًا ومعنى، وقال الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، والبرهان والنور لا بد أن يكون بيِّنًا، ولا يمكن أن يوجد في القرآن شيءٌ لا يعلم أحدٌ معناه أبدًا.

***

وأمثلة هذا النوعِ كثيرةٌ، منها قوله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، حيث اشتبه على أهل التعطيل، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وادَّعوا أن ثبوتها يستلزم المماثلة، وأعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة.

الشـرح

هذه الآيات ضلَّ فيها طائفتان: طائفة غلوا في نفيها، وفهموا أنها تدل على نفي كل صفة، وقالوا: إنك إذا أثبتَّ أيَّ صفةٍ فقد مثَّلْتَ، وهؤلاء هم أهل التعطيل، وبعضُهم قال: إنه ليسَ كمثلِه شيءٌ في الصفات الخبريَّة فقط، كالوجه واليدين وما أشبه ذلك، وبعضُهم قال: إنه ليس كمثله شيءٌ في كل الصفات، وأن نفيَ المِثْل يدُلُّ على ثبوت أصل المعنى؛ لأنه لولا ثبوتُ أصل المعنى لكان نفيُ المِثْل لَغْوًا لا فائدةَ منه.

* * *